روسيا التي عرفتها.

دخلت روسيا طالباً عام ١٩٠٦، وأنا في السابعة عشرة من عمري. وخرجت منها عام ١٩١١. فما دار في خلدي يوم دخلتها أنّني داخل جوف بركان، ولا يوم تركتها أن ذلك البركان سينفجر انفجاره الهائل بعد سبعة أعوام لا أكثر، فيسجل التاريخ أفول آخر دولة استبدادية وبزوغ أوّل دولة اشتراكيّة في العالم.

مرّ على مغادرتي بلاد الصقالبة سبعة وثلاثون عاماً، وأنا كلّما ذكرتها فكما يذكر الولد البار أباه أو أمّه. أو كما يذكر من سار في فدفد قاحل، عابس، خميلة غنّاء نبتت له بغتة خلف كثيب من الكثبان فتفيّأ ظلالها. وبرّد لظاه بسلسبيلها، ومتع ناظريه بخضرتها، وتزوّد منها نشاطاً وجمالاً، ثمّ مضى في سبيله.

لقد أحببت روسيا. أجل، أحببتها «لأوّل نظرة». وما كان حبّي لها نتيجة لعرفان جميل أو لشعور بأنّي مدين لها بما تعلّمته في مدارسها. فقد نسيت، أو تناسيت، جلّ ما